

البعث الديني والاجتماعي في بعث الحضارات وأقولها من خلال الرؤية الخلدونية .

الباحثة الدكتورّة: شهنّاز سُمّية بن الموفق .
جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

نبذة عن حياة ابن خلدون :

ابن خلدون (732-808هـ = 1332-1406م):

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون أبو زيد، وليّ الدين الحضرميّ الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس وقرنطبة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برفوق. وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزوّج بزيّ القضاة محتفظاً بزيّ بلاده. وعزل، وأعيد، وتوفي فجأة في القاهرة، كان فصيحاً، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طامحاً للمراتب العالية. ولما رحل إلى الأندلس اهتزّ له سلطانها، وأركب خاصته لتلقيه، وأجلسه في مجلسه.

اشتهر بكتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر - ط (في سبعة مجلدات، أولها "المقدمة" وهي تعد من أصول علم الاجتماع، ترجمت هي وأجزاء منه إلى الفرنسية وغيرها. وختم "العبر" بفصل عنوانه (التعريف بابن خلدون) ذكر فيه نسبه وسيرته وما يتصل به من أحداث زمنه. ثم أفرد هذا الفصل، فتبسّط فيه، وجعله ذيلًا للعبر، وسماه) التعريف بابن خلدون، مؤلف الكتاب، ورحلته غرباً وشرقاً - ط (ومن كتبه) شرح البردة (وكتاب في) الحساب (ورسالة في) المنطق (و)شفاء السائل لتهديب المسائل - ط (وله شعر. وتناول كتاب من العرب وغيرهم سيرته وآراءه، في مؤلفات خاصة، منها: (حياة ابن خلدون - ط) لمحمد الخضر بن الحسين، و(فلسفة ابن خلدون - ط) لطف حسين، و(دراسات عن مقدمة ابن خلدون - ط) لساطع الحصري، جزءان، و(ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري - ط) لمحمد عبدالله عنان، و(ابن خلدون - ط) ليوحنا قمير، ومثله لعمر فروخ¹.

¹الأعلام، خيرالدين الزركلي (330/3).

-مراحل حياة ابن خلدون:

اجتاز ابن خلدون في حياته أربع مراحل، تمتاز كل مرحلة منها بمظاهر خاصة من نشاطه العلمي والعملية:

المرحلة الأولى :

مرحلة النشأة والتلمذة والتحصيل العلمي. وتمتد من ميلاده سنة 732هـ لغاية سنة 751هـ، فتستغرق زهاء عشرين عامًا هجريًا. وقد قضاها كلها في مسقط رأسه بتونس، وقضى منها نحو خمسة عشر عامًا في حفظ القرآن وتجويده بالقراءات والتلمذة على الشيوخ وتحصيل العلوم.

المرحلة الثانية:

مرحلة الوظائف الديوانية والسياسية. وتمتد من أواخر سنة 751هـ إلى أواخر سنة 776هـ، فتستغرق زهاء خمسة وعشرين عامًا هجريًا، قضاها متنقلا بين بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وبعض بلاد الأندلس، وقد استأثرت الوظائف الديوانية والسياسية بمعظم وقته وجهوده في أثناء المرحلة.

المرحلة الثالثة:

مرحلة التفرغ للتأليف. وتمتد من أواخر سنة 776هـ إلى أواخر سنة 784هـ، فتستغرق نحو ثمان سنين، قضى نصفها الأول في قلعة ابن سلامة ونصفها الأخير في تونس، وقد تفرغ في هذه المرحلة تفرغًا كاملاً لتأليف "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". ويطلق الآن على القسم الأول من هذا الكتاب اسم مقدمة ابن خلدون، وهو يشغل مجلدًا واحدًا من سبعة مجلدات يشغلها هذا الكتاب بحسب طبعة بولاق، ولم يستغرق تأليف هذا القسم في وضعه الأول إلا خمسة أشهر فحسب.

المرحلة الرابعة:

مرحلة وظائف التدريس والقضاء. وتمتد من أواخر سنة 783هـ إلى أواخر سنة 808هـ، فتستغرق زهاء أربع وعشرين سنة قضاها كلها في مصر؛ وقد استأثرت وظائف التدريس والقضاء بأكثر قسط من وقته وجهوده في أثناء هذه المرحلة².

²علي عبد الواحد وافي، مقدمة ابن خلدون، ص 27.

-الظروف والأحداث في حياة ابن خلدون:

لكل عصر قيمه وعاداته وطرائقه وأساليب الحياة السائدة فيه، التي تحدد ملامح حضارة هذا العصر، والتي يعكسها الإنتاج الفكري لعلمائه ومثقفيه. كما يعكس هذا الإنتاج الفكري ملامح الحضارة والعصر التي ينتمي إليها فهو أيضًا يتأثر بهما، لهذا ترتبط عملية استيعاب وفهم الإنجاز العلمي والفكري للعلامة "ابن خلدون" بالتعرف على ظروف عصره وملامحه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية³.

-الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر "ابن خلدون":

كان النشاط الاقتصادي من أكثر الأنشطة الاقتصادية رواجًا في المغرب العربي، حيث كانت قوافل التجارة تقطع فيافي هذه البلاد⁴. ويصف ابن بطوطة بلاد المغرب بأنها هي أرخص البلاد، وأكثرها خيرات، وأعظمها فوائد. وبخلاف النشاط التجاري كان هناك نشاط زراعي واسع في بلاد المغرب الأقصى، وكان استثمار الأراضي للزراعة كان يدرُّ مدخلات طيبة. وقد انعكس هذا الرخاء الزراعي على مستوى ونوعية الحياة في تلك البلدان التي عرفت أيضًا نهضة عمرانية كبيرة أشارت كتب الرحالة إلى أبرز معالمها، ولم تقتصر النهضة العمرانية على القصور فقط ولكنها تضمنت الكثير من الطرق البرية والبحرية التي سهلت التنقل من مكان إلى آخر⁵. أما من الناحية الاجتماعية: فالعصر الوسيط الذي ينتمي إليه "ابن خلدون" لم تعرف مجتمعاته الطبقات الرأسية - كما هو الحال اليوم - بل كانت طبقات ومراتب وأصنافًا أفقية على طول امتداد العالم الإسلامي. فهناك طبقة الجنود وطبقة العلماء وطبقة التجار وطبقة المتصوفة... إلخ. وكان أفراد كل طبقة يتعاطفون فيما بينهم بغض النظر عن اختلاف جنسياتهم، مهما بعدت بهم المسافات وفرقت بينهم السياسات، بمعنى أن العالمية والوحدة كانتا من سمات العصر الوسيط، وهو أمر كان ملائمًا لطبيعة البنية السياسية والنشاط الاقتصادي لذلك العصر⁶. ولم تختلف أوضاع الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمصر - البلد التي قضى فيها ابن خلدون الربع قرن الأخير من حياته - كثيرًا عن الحياة في بلاد المغرب العربي؛ من حيث ازدهار الحياة الاقتصادية، وهو ما يظهر بوضوح في

³ محمد الجوهري، محسن يوسف، ابن خلدون إنجاز فكري متجدد، ص 20.

⁴ للتعرف على هذه الرحلات الاقتصادية انظر: الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،

تحقيق: عبد الهادي التازي، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية رحلة ابن بطوطة، ص 161/1.

⁵ محمد الجوهري، محسن يوسف، ابن خلدون إنجاز فكري متجدد، ص 20، 21، 26، بتصرف.

⁶ المرجع السابق، ص 20.

الانطباعات الخلاقة التي أوردها" ابن بطوطة "من خلال وصفه لهذه البلاد التي زارها أثناء رحلته، ووصفه لمصر الحضارية التي بهرته مثلما بهرت معاصره "ابن خلدون"⁷.

-الحياة الثقافية والسياسية في عصر ابن خلدون:

لا يمكن الفصل بين الإنجاز العلمي الذي قدمه" ابن خلدون "للإنسانية وبين طبيعة الحياة الثقافية والفكرية والسياسية التي عاصرها "ابن خلدون"، وشكلت ملامح فكره وتكوينه المعرفي. فقد كان "ابن خلدون" تجسيداً في شخصه لوحدة علمية وثقافية شملت العالم العربي الإسلامي، كما كان تجسيداً في فكره لفلسفة التاريخ الإسلامي، وممثلاً لحال الثقافة العربية الإسلامية في عصر توهُّجها الأخير؛ حيث عاش في زمن "كان" العرب والمسلمون فيه ما يزالون يقودون البشرية صوب التقدم والرقي، ومن ناحية أخرى كان العصر الذي عاش فيه "ابن خلدون" هو عصر "التجميع"، الذي أنتج الموسوعات الكبرى، عصر التوهج الأخير الذي شهد محاولات "الجمع" أكثر من محاولات "الإبداع"؛ فقد كتب النويري "نهاية الأرب في فنون الأدب"، وكتب العمري "مسالك الأبصار"، وكتب القلقشندي "صبح الأعشى"، كما كتب غيرهم مؤلفات وموسوعات ومعاجم "جامعة"⁸.
ومن ناحية أخرى، ازدهرت الكتابة التاريخية العربية، وتنوعت أنماط الكتابة التاريخية ما بين الكتب العامة، والرسائل ذات الموضوع الواحد، والسير الملكية، والتاريخ الحضري الذي يختص بمدينة ما، وفضائل البلدان، والخطط. كان "ابن خلدون" هو ابن العصر الأخير من عصور الثقافة العربية الإسلامية (القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)⁹

وإذا كان هذا العصر قد تميز - كما أسلفنا - بغزارة الإنتاج العلمي لعمالقة الفكر في الغرب الإسلامي، إلا أنه يمكن القول: بأن أدب الرحلات هو من أهم الآثار التراثية التي ميزت هذه الحقبة. فقد جاب عدد كبير من الرحالة المغاربة والأندلسيين الشمال الإفريقي طويلاً وعرضاً، وجاسوا فيه خلال الديار، وفحصوا أغواره، وأنجده، واصفين لنا بدقة الأحوال السياسية، والثقافية، والتاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية لهذه البلاد¹⁰

⁷المرجع السابق، ص28.

⁸المرجع السابق، ص28،29.

⁹المرجع السابق، ص29.

¹⁰المرجع السابق، ص30.

ورغم ما تؤكدته كتب الرحلة من ازدهار الحركة العلمية والثقافية في عصر "ابن خلدون" نجدتها تشير أيضًا إلى ملامح الحياة السياسية في تلك الحقبة، وهي الملامح التي أثرت على رؤية "ابن خلدون" الفكرية، والتي يعكسها كتاب "العبر في ديوان المبتدأ والخبر" بجميع أجزائه، ففي هذا العمل وضع "ابن خلدون" خلاصة تجاربه، وبرز كمؤرخ فهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل الذي يتلخص في: أن الحدث التاريخي أكبر من أن يكون حدثًا سياسيًا فقط، بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك النفسية أيضًا، وهذا مما دعا "ابن خلدون" إلى الكلام عن مفهوم التاريخ على أنه أشبه بمفهوم الحضارة؛ أي: جعله تاريخًا للأمم والشعوب بدلاً من سير الملوك والأمراء وطبقات الأعيان، لهذا لا يمكن فصل رؤية "ابن خلدون" عن أسباب قيام الحضارات والدول واختيارها بمعزل عن واقع الحياة السياسية في عصره بكل تعقيداتها والتي كان "ابن خلدون" نفسه طرفًا في بعضها، فقد حكمت الشمال الإفريقي في هذا العصر إمارات تميّزت إلى حد ما بالرفاهية والقوة والمنعة، وهي الإمارات التي تجرأت إليها دولة الموحدين بعد سقوطها عام 667هـ/1268م¹¹. وقد تواترت في رحلات الرحالة في تلك الفترة الإشارة إلى الصراعات السياسية بين الإمارات المتنازعة وجهود بعض الحكام لتوحيدها.¹²

وبجانب الصراعات السياسية الناشئة بين حكام الإمارات، وما أدت إليه من اضطراب سياسي، كان هناك أيضًا مشكلات الصراعات القبلية التي نجمت عن ضعف السلطة السياسية، وأدت إلى خروج العديد من القبائل عليها وممارستها لعمليات السلب والنهب.¹³

كذلك تشير كتب الرحلة في تلك الفترة إلى ظلم واستبداد الحكام ونهبهم للمحكومين بدون أي رادع.¹⁴ كان العالم الإسلامي أيضًا يعاني من أعداء صليبيين، ولا سيما في المغرب والأندلس؛ حيث كثيرًا ما لجأت الأندلس لاستصراخ إخوانها المغاربة للجهاد ضد المسيحيين.¹⁵ أما الجناح الشرقي للعالم الإسلامي، فقد كان يتعرض لخطر هجمات التتار الذين احتك بهم "ابن خلدون" بنفسه.¹⁶

هذه هي أهم الصور والأحداث التي أثرت في فكر "ابن خلدون"، وكان لها أكبر الأثر في فكره وكتابته.

قيام الحضارات وسقوطها عند ابن خلدون:

¹¹ المرجع السابق، ص 34.

¹² المرجع السابق، ص 37.

¹³ المرجع السابق، ص 37.

¹⁴ المرجع السابق، ص 39.

¹⁵ المرجع السابق، ص 39.

¹⁶ المرجع السابق، ص 40.

اهتم ابن خلدون بقضية الحضارة والعمران وبيان أسبابها ومظاهرها، وأسباب اندثارها وانحطاطها، هذا ما برز في مقدمة ابن خلدون، وسوف نتحدث عن هذه القضية من كلام ابن خلدون نفسه. ولكن قبل أن نبدأ نقرر: أن ابن خلدون لم يرتكب خطأً حصر نفسه في المتغيرات الاقتصادية وحدها لتفسير التنمية والانحطاط، بل إنه اعتمد على مقارنة دينامية متعددة فروع المعرفة؛ ليبين كيف أن العلاقة المترابطة للعلاقة الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية، والسياسية والتاريخية والديموغرافية، تؤدي إلى نهضة المجتمعات وسقوطها.¹⁷

- أسباب الحضارة والعمران عند ابن خلدون:

-1- العوامل الطبيعية الجغرافية:

إن للحضارة عند ابن خلدون سبباً طبيعياً جغرافياً، ففي المقدمة الثالثة يعنونها ابن خلدون بعنوان: "في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم"، ثم يفسر ذلك بقوله: "قد بينا أن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب والبرد في الشمال، ولما كان الجنبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب أن تندرج الكيفية من كليهما إلى الوسط، فيكون معتدلاً، فالإقليم الرابع أعدل للعمران، والذي حافظه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان من الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير، فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً، حتى النبوت فإنما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خير بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم؛ قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (آل عمران: 110)^{18 19}.

-2- الانتقال من البداوة إلى الحضرة:

ثاني هذه العوامل التي تساعد في قيام الحضارة والعمران الانتقال من طور البداوة إلى طور الحضارة. فقد بين ابن خلدون أن أجيال البدو والحضر طبيعية، فاختلف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نَحْتِهِمْ من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر، والمعز والنحل والدود، لِنَتَاجِهَا واستخراج فضلاتها، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة - ولا

¹⁷ الحضارة الإسلامية (أسباب الانحطاط والحاجة إلى الإصلاح)، محمد عمر شابر، ص 61.

¹⁸ مقدمة ابن خلدون، علي عبدالواحد وافي، ص 392، 393، 399، 401.

¹⁹ للتعليق على العامل الجغرافي وأثره في الحضارة والعمران، المرجع السابق، ص 403، 404، تعليق رقم: (268)

بد - إلى البدو؛ لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والُقْدُن والمسارح للحيوان وغير ذلك، فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمرًا ضروريًا لهم، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمراتهم من القوت والكنّ والدِّفَاء، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصلُ بُلْغَةَ العيش من غير مزيد عليه، للعجز عما وراء ذلك.

ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرِّفْه، دعاهم ذلك إلى السكون والدَّعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت، واختطاط الأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرِّفْه والدَّعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجدادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالجة البيوت والصروح، وإحكام وضعها في تنجيدها، والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويُجْرُونَ فيها المياه ويعالون في صرْحها، ويبالغون في تنجيدها، ويختلقون في استجدادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش، أو آنية أو ماعون، وهؤلاء هم الحضرة، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة. وتكون مكاسبهم أسمى وأرفه من أهل البدو؛ لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وُجْدِهِمْ.

فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها كما قلنا^{20 21}.

3- وجود سياسة ينتظم بها أمر العمران:

يرى ابن خلدون أن الاجتماع البشري ضروري، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه، وحكمه فيهم: تارة يكون مستندًا إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالشواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلِّغُه؛ وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة، ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط.

وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب، وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكام رأسًا: ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك "بالمدينة الفاضلة"؛ والقوانين المراعاة في ذلك "بالسياسة المدنية". وليس مرادهم السياسة التي يُحْمَلُ عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة؛ فإن هذه غير تلك. وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير.

²⁰ المرجع السابق، ص 467، 468.

²¹ للاستزادة في الحديث عن هذا العنصر انظر: المرجع السابق، ص 80، 476، 477، 478، 479، 472، 473.

ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين. أحدهما يراعي فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص. وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة. وقد أغنانا الله عنها في الملة ولعهد الخلافة، لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآداب، وأحكام الملك مندرجة فيها، الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهر والاستطالة، وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً، وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر، إلا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم؛ فقوانينها إذاً مجتمعة من أحكام شرعية، وآداب خلقية، وقوانين في الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية، والافتداء فيها بالشرع أولاً، ثم الحكماء في أدبهم والملوك في سيرهم^{22 23}.

4-الثروة ودورها في الحضارة وال عمران:

المال عند ابن خلدون لا يعتمد على الحظ أو قراءة النجوم، أو وجود مناجم الذهب والفضة؛ يقول ابن خلدون: "اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض، ويتبعون الكسب في ذلك، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مخزنة كلها تحت الأرض محتوم عليها بطلاسم سحرية لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه، واستحضر ما يحمله من البخور والدعاء والقربان"²⁴ وقد أكد ابن خلدون أن الكسب والإنتاج وال عمران لا يتحقق إلا بالعمل، فيقول: "فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول؛ لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن، فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع"²⁵

5-العدل ودوره في العمران والحضارة:

فقد أكد ابن خلدون على أهمية العدل في قيام الحضارات، ففي عنوان له في المقدمة "الظلم مؤذن بخراب العمران"؛ يقول ابن خلدون: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهاؤها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش، كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه الآمال جملة بدخوله من

²² المرجع السابق، ص724،725.

²³ للاستزادة في الحديث عن هذا العنصر انظر: المرجع السابق، ص489-782.

²⁴ المرجع السابق، ص838.

²⁵ المرجع السابق، ص833.

جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته، والعمران ووفوره وتَفَاق أسواقه، إنما هو بالأعمال، وسعي الناس في المصالح والمكاسب، ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال واِبْدَغَرَّ²⁶ الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان؛ لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة²⁷

ثم يقول ابن خلدون: "واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تحريب العمران، كان حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهماً، وأدلته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر²⁸"

-أسباب انهيار الحضارة والعمران عند ابن خلدون:

أشار ابن خلدون في مقدمته عن أسباب انهيار الحضارات وخراب العمران، ومن هذه الأسباب التي ذكرها ابن خلدون:

1- تغلب العرب على الأوطان²⁹:

وقد أشار ابن خلدون إلى هذا الأمر، وعنون له عنواناً: "العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب"، وقد فسر ذلك بقوله: "والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقاً وجبلة، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له³⁰"

2- الاستبداد بالملك وحصول الترف:

وقد بين ذلك ابن خلدون بقوله: "وبيانه من وجوه:

²⁶ ابْدَغَرَّ: ابذعروا تفرقوا وفروا (القاموس)

²⁷ المرجع السابق، ص 697، 698.

²⁸ المرجع السابق، ص 699، 700.

²⁹ يستخدم ابن خلدون في معظم فصول المقدمة كلمة "العرب" بمعنى الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشغلون بمهنة الرعي، وخاصة رعي الإبل، ويتخذون الخيام مساكن لهم، ويظعنون من مكان إلى آخر حسب مقتضيات حياتهم وحاجات أنعامهم التي يتوقف معاشهم عليها؛ وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار. كما تدل على ذلك الحقائق نفسها التي عرضها ابن خلدون في الفصول التي وردت فيها هذه الكلمة (تعليق رقم 359) للدكتور/ علي عبدالواحد وافي، مقدمة ابن خلدون، ص 469.

³⁰ المرجع السابق، ص 508، 509.

الأول: ما كان المجد مشتركًا بين العصابة، وكان سعيهم له واحدًا، كانت همتهم في التغلب على الغير والدَّبَّ عن الحوْزَةِ، وإذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم، وكبح من أعتتهم واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو، وفشل ريجهم، ورئموا المذلة والاستعباد، ثم رُبِّي الجيل الثاني منهم على ذلك، يحسبون ما ينالهم من العطاء أجرًا من السلطان لهم على الحماية والمعونة.

والوجه الثاني: أن طبيعة الملك تقتضي الترف، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم؛ فالفقير منهم يَهْلِك، والمترف يستغرق عطاءه بترفه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصُر العطاء كله عن الترف وعوائده.

وأيضًا فالترف مفسد للخُلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر والفسفسة وعوائدها، فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه، ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر، فتكون علامة على الإدبار، والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته، وتأخذ الدولة مبادئ العطب، وتتضعع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضي عليها.

والوجه الثالث: أن طبيعة الملك تقتضي الدعة، وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألَفًا وحُلُقًا، صار ذلك طبيعة وجبلة، فتربِّي أجيالهم الحادثة في غضارة³¹ العيش ومهاد الترف والدعة، وينقلب خلق التوحش، وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك؛ من شدة البأس، وتعود الافتراس، وركوب البيداء، وهداية الفقر، فلا يفرق بينهم وبين السُّوقَة من الحضرة إلا في الثقافة والشارة، فتضعف حمايتهم، ويذهب بأسهم، وتنخضد شوكتهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم³²...

3- الظلم مؤذن بخراب العمران:

"ومن أشد الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق، فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم وأخذوا سُخْرِيًّا في معاشهم، بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو مُتْمَوْلُهُمْ، فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة، وإن تكرر ذلك أفسد آمالهم في العمارة، وقعدوا عن السعي فيها جملةً، فأدى ذلك إلى انتقاص العمران وتخريبه³³"

"وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس، بشراء ما في أيديهم بأبخس الأثمان، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه في الشراء والبيع، وربما تُفرض عليهم تلك الأثمان على التراخي والتأجيل، فيتعللون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تحدثهم المطابع من جبر ذلك بحوالة

³¹ الغضارة: النعمة والسعة والخصب (القاموس).

³² المرجع السابق، ص 533، 534، 535.

³³ المرجع السابق، ص 701.

الأسواق في تلك البضائع التي فرضت بالغلاء إلى بيعها بأبخس الأثمان، وتعود خسارة ما بين الصفتين على رؤوس أموالهم³⁴...

4- الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ومؤذنة بفساده:

"الملك والدولة غاية العصبية، والحضارة غاية للبداءة، وأن العمران كله من بداءة وحضارة وملك وسوقه له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً، وتبين في العقول والنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط، فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها، والحضارة كما علمت هي الترف في الترف واستجادة أحواله، والكلف³⁵ بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس، أو المباني أو الفرش، أو الآنية ولسائر أحوال المنزل، وللتأنق في كل واحدة من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداءة، وعدم التأنق فيها، وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات، ففتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها، أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها، وأما دنياها فلكتثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها³⁶"

قوانين ابن خلدون الحضارية وتقويمها

يرى ابن خلدون في تفسيره للتاريخ أن التطور سنة من سنن الله في الحياة الاجتماعية ، ويقول: " إنَّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ."

وأهم ما يوجه التطور الاجتماعي والعمراني عند ابن خلدون هو نظريته في العصبية ، فهي بمثابة المحور الذي تدور حوله معظم المباحث الاجتماعية والتاريخية عنده ، وهو يتخذ من هذه الرابطة موضوعاً لدراسةٍ شاملةٍ وعميقةٍ فيتكلم عن مصدر العصبية ، ويردّها إلى الطبيعة البشرية " لأن صلة الرحم طبيعة في البشر إلا في الأقل ، ومن صفتها النعرة على ذوي القرى وأهل الأرحام إن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة:

³⁴ المرجع السابق، ص701.

³⁵ كَلَّفْتُ بِهِ كَلْفًا فَأَنَا كَلِّفُ، أَحَبَبْتَهُ وَأَوْلَعْتُ بِهِ (المصباح).

³⁶ المرجع السابق، ص817،818.

ويدخل في هذه العصبية عنده (عصبة الولاء)، والعصبية عنده من خصائص البادية، وهي ما يفسد بحياة الحضر، ولها أثرها الهام في الحياة الاجتماعية؛ لأن بها يتم التغلب، وبالتغلب يحصل الملك، وهكذا تلعب العصبية دورا هاما في تأسيس الملك وتكوين الدولة، فانتساع الدولة يكون مناسبا مع قوة تلك العصبية، ويلاحظ ابن خلدون نوعا من العلاقة بين قوة العصبية وبين أمور الديانة والدعوة الدينية أيضا، ففي رأيه أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم، كما يلاحظ نوعا من المشابهة بين تأثير الدين وبين تأثير العصبية في الحياة الاجتماعية، وهي نظرية موفقة إلى حد كبير في إظهار أوثق أنواع الروابط الاجتماعية، وتعيين أهم أشكال التكاتف الاجتماعي في مثل تلك البيئات الجغرافية وتلك العهود التاريخية، وهي تدل على تفكير فاحص وناقد ومحيط ومتعمق في درس الحوادث الاجتماعية وتعليل الوقائع التاريخية، كذلك تكشف نظرية ابن خلدون في الدول وأعمارها عن نظرية في التطور الاجتماعي، ذات أبعاد بيولوجية، فالدولة عنده كائن حي يتطور على الدوام وفق نظام ثابت، كما تتطور جميع الكائنات الحية.

الجزء رقم : 15، الصفحة رقم: 251

فالحضارة عند ابن خلدون تتعاقب على الأمم في ثلاثة أطوار: هي طور البداوة، ثم طور التحضر، ثم طور التدهور الذي يؤدي إلى السقوط.

- فأما طور البداوة فيمثل له ابن خلدون بمعيشة البدو في الصحاري، والبربر في الجبال، والتتار في السهول، وهؤلاء عند ابن خلدون لا يخضعون لقوانين مدنية ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم.

- وأما طور التحضر: فهو طور تأسيس الدولة عقب الغزو والفتح، ثم الاستقرار في المدن، والتمكن من العلوم والصناعات، وهذا الطور يقوم على الدين والعصبية - وقد عقد ابن خلدون لهذا الفصل فصلاً آخر بعنوان " فصل في أن الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق " .

- وأما طور التدهور: فيأتي في نهاية التحضر، بعد مرحلة الازدهار، ووصول الناس إلى مرحلة الانغماس في الترف، والتحلل في الأخلاق، وتغير العادات إلى المناكر، والتواضع عليها. ويرى ابن خلدون أن مراحل تحضر الدولة هي ذاتها عوامل تدهورها، ذلك أن الحضارة، وإن كانت غاية العمران فهي في الوقت نفسه مؤذنة بنهاية عمره، وأول هذه العوامل هو العصبية التي تتسم بها الرياسة والملك، ولكن صاحب الرياسة يطلب بطبعه الانفراد بالملك والمجد، والطبيعة الحيوانية تدفعه إلى الكبر والأنفة، فيأنف من أن يشاركه أهل عصبته فيدفعهم عن ملكه، ويأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة، حتى يصبحوا بعض أعدائه، وطبيعة التآله في الملوك تدفعه إلى الاستئثار، إذ لا تكون الرياسة إلا بالانفراد، فيجدع أنوف عشيرته وذوي قرياه لينفرد بالملك والمجد ما

تصفح رقم المجلد < العدد الخامس عشر - الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة 1406هـ > بحوث تاريخية < ابن خلدون وريادته لعلم تفسير التاريخ > قوانين ابن خلدون الحضارية وتقويمها

استطاع ، ويعاني الملك في ذلك بأشد مما عانى في إقامة الملك ، لأنه كان يدافع الأجنب وكان ظهراؤه على ذلك أهل العصبية أجمعهم، أما حين الانفراد بالملك فهو يدافع الأقارب مستعينا بالأبعد ، فيركب صعبًا من الأمر. إنه أمر في طبائع البشر لا بد منه في كل الملوك. على أن العامل الحاسم في ضعف الدولة هو الترف، إنه إذا كان قد زاد من قوة الدولة في أولها، فإنه أشدّ العوامل أثرا في ضعفها وانحيارها ، ويفسر ابن خلدون ذلك بأسباب اقتصادية وأخلاقية ونفسية.

الجزء رقم : 15، الصفحة رقم: 252

أما العامل الاقتصادي فإن طبيعة الملك تقتضي الترف حيث النزوع إلى رقة الأحوال في المطعم والملبس والفرش والآنية ، وحيث تشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة ، وحيث إجازة الوفود من أشرف الأمم ووجوه القبائل مع التوسعة في الأعطيات على الصنائع والموالي ، وإدرار الأرزاق على الجند ، ويزيد الانغماس في الترف والنعيم لا من جانب السلطان وبطانته فحسب ، بل من جانب الرعية أيضا ، إذ الناس على دين ملوكهم .

أما العامل الأخلاقي النفسي ، الذي يجعل الترف معول هدم يؤدي إلى انهيار الدولة ، فمبعثه في رأي ابن خلدون ما يلزم عن الترف من فساد الخلق ، فإن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات وكثير من مذمومات الخلق ، فتذهب عن أهل الحضرة طباع الحشمة ويقذعون في أقوال الفحشاء ، فضلا عن أن الترف يؤدي إلى إضعاف العصبية والبسالة ، حتى إذا انغمسوا في النعيم أصبحوا عيالا على الدولة ، كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم ، فالترف مفسد لبأس الفرد وشكيمة الدولة ، والترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الفساد والسفه ، والترف مظهر لحياة السكون والدعة ودليل ميل النفس إلى الدنيا والتكالب على تحصيل متعها ، حتى يتفشى الخلاف والتحاسد ، ويفت ذلك في التعاضد والتعاون ، ويفضي إلى المنازعة ونهاية الدولة .

الجزء رقم : 15، الصفحة رقم: 253

وقد انتهى ابن خلدون من خلال نظريته في تفسير التاريخ - باستثناء عشرات النظرات والآراء الجزئية - إلى عدد من القوانين اعتبرت جوهر نظريته ، وهي:

· تصفح رقم المجلد < العدد الخامس عشر - الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة 1406هـ > بحوث تاريخية < ابن خلدون وريادته لعلم تفسير التاريخ > قوانين ابن خلدون الحضارية وتقويمها

· تصفح رقم المجلد < العدد الخامس عشر - الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة 1406هـ > بحوث تاريخية < ابن خلدون وريادته لعلم تفسير التاريخ > قوانين ابن خلدون الحضارية وتقويمها

- 1 - أن تطور التاريخ يخضع للتدافع والصراع والتفاعل .
- 2 - أن العصبية الدينية والقبلية لها دور أساسي في بناء الدول .
- 3 - أن الحضارة كالكائن الحي في تطوره من البداوة إلى الحضارة ثم الاضمحلال .
- 4 - وأن الدول كالأفراد تخضع لدورة الحياة الفردية نفسها حتى تموت .
- 5 - أن العوامل الجغرافية والبيئية مؤثرة في التاريخ .
- 6 - أن للاقتصاد دورا مهما في العمران البشري .
- 7 - أن الدول تسقط بسقوط العصبية والولاء للدين .
- 8 - أن العرب (والإنسانية كلها) لا تصلح بغير الدين .

إنني هنا لا أحاول القيام بعملية استقصائية للنظرية الخلدونية في تفسير التأريخ ، لكن الذي أردت الوقوف عنده هو المكانة التي تبوأها الفكرة الخلدونية في تفسير التأريخ ، سواء في الحضارة الإسلامية أو في الفكر التاريخي الإنساني .

الجزء رقم : 15 ، الصفحة رقم: 254

لقد شكلت مقدمة ابن خلدون منعرجا حاسما في كيفية فهم الإنسان لتأريخه وتقويمه له . وما يرجو منه من كشف ، لا عن ماضيه فحسب ، بل خاصة عن تطور الجنس الذي ينتمي إليه ومصيره .
لقد كانت الكتابة التاريخية - قبل ابن خلدون - وعلى امتداد التاريخ كله ، باستثناء الشذرات التي ألمعنا إليها ...

- كانت هذه الكتابات تنظر إلى التأريخ على أنه مجرد رواية صادقة ، ووثيقة مؤكدة في نسبتها إلى صاحبها وعصرها وسلامتها مضمونها ، ومعلومات جزئية غايتها الإمام بحوادث الماضي والإحصاء العددي لها . . . أجل : حاول الإنسان أولا - أن يؤرخ للحوادث البارزة ، أي أن يكون لنفسه ، ولعشيرته ، ولقومه ذاكرة تحفظ المفاحر خاصة ، وتضبط أزماتها حسب السنوات ، من دون أن يحاول أن يفهم فهما عقليا عميقا ضرورة بروزها في زمن وبيئة خاصة ، وسرّ تداخلها ، ومدى تأثيره على جنسه كإنسان يقطع النظر عن النظرة الجزئية المحدودة .
- وعلى الرغم من الومضات الصادرة من حين إلى حين في بعض أحقاب التأريخ ، وعلى يد بعض الأفاضال الذين ألمعنا إليهم ، فإن التأريخ بقي محصورا في دائرة الحفظ التسجيلي للوقائع ، مع توخي الصدق ، والتحرري في الرواية

تصفح رقم المجلد < العدد الخامس عشر - الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة 1406هـ > بحوث تاريخية < ابن خلدون وريادته لعلم تفسير التأريخ > قوانين ابن خلدون الحضارية وتقويمها

ولعل مرحلة الصدق والتحري ودراسة الوثائق ، بل الاعتماد عليها ، هي أفضل ما استطاع المنهج التاريخي أن يصل إليه قبل عصر ابن خلدون .

وما إن جاء مؤرخنا المسلم العظيم حتى بدأ التأريخ - كما يقول (إيف لاکوست) (Yves Lacaste) " يكتسي صبغته العلمية " .

- لقد فهم (ابن خلدون) علاقة التفاعل المتبادلة ، التي تربط الإنسان بتأريخه . . . وقد أسماها ابن خلدون " التغلبات للبشر بعضهم على بعض " ، وقامت بعد ابن خلدون نظريات عالية الصوت ، تتحدث عن الصراع ، وعن " الديالكتيك " وعن " الجدلية المادية " و " الجدلية الفكرية " . . . كلها قد اتكأت على هذا القائد العظيم ، وانحرفت عنه يمينا أو يسارا .

الجزء رقم : 15 ، الصفحة رقم : 255

إن ابن خلدون قدم المحاولة العلمية الأولى التي تخصصت في تفسير التأريخ ، وهي محاولة اعتمدت على المنهج القرآني ، ولم تنفصل عنه . . . لقد صور ابن خلدون حقيقة التأريخ بكل وضوح في عبارته المشهورة :
" حقيقة التأريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني ، الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال .

ويعلق أحد المؤرخين المعاصرين على رؤية ابن خلدون للتأريخ - كما صورتها عبارته السابقة - فيقول :
إن هذا التعريف للتأريخ يدهشنا ، إذ هو تعريف له كما نفهمه نحن اليوم ، بل كما يفهمه أنصار الحركة التجريدية الذين حملوا حملة شعواء في مؤتمر سنة 1950 بباريس ، على من بقي من المؤرخين متمسكا بالطريقة التقليدية في رواية الحوادث واعتبار التأريخ يكفي أن يكون سجلا لها . فابن خلدون يريد عكس ذلك ، فهو يريد أن يجعل من التأريخ أداة كشف عن سر " الاجتماع الإنساني " ، وعن خروج هذا الإنسان من " التوحش " إلى " التأنس " بفضل الله ، ثم بفضل الصراع الجدلي الذي يعبد سبيله ، عبر عقبات متجددة ، نحو إنسيّة أكمل ، عن طريق الرقي المستمر الناشئ حتما عما " ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال " ، وطبيعة الأحوال هذه التي يشير إليها ابن خلدون ، ويعتبرها القانون الذي بمقتضاه يسير التطور الضروري الذي لا يعاند ، إنما هي سنة الله التي توجه شراع الخليقة ،

تصفح رقم المجلد < العدد الخامس عشر - الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة 1406 هـ > بحوث تاريخية < ابن

خلدون وريادته لعلم تفسير التأريخ < قوانين ابن خلدون الحضارية وتقويمها

لَيْتَنَّا تَارَةً ، عَنِيفَةً أُخْرَى ، وَالَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي أَكْثَرِ مِنْ آيَةٍ ، وَهَكَذَا يَصْبِحُ التَّأْرِيخُ ، اسْتِكْشَافًا كَلِيًّا لِتَطَوُّرِ الْإِنْسَانِ ، وَمَحَاوَلَةً حَلِّ لِلْغَزْرِ وَضَعَهُ الْيَوْمَ فِي هَذَا الْكَوْنِ ، وَمَلْصِيْرَهُ الْعَاجِلِ أَوْ الْآجِلِ .

الجزء رقم : 15 ، الصفحة رقم: 256

ولئن كان ابن خلدون لم يطبق كثيرا من آرائه هذه الطموحة الجريئة في كتاب العبر ، فإن ذلك لا يسلب فضل التعبير عنها بغاية الدقة والوضوح . فإنه كان من المستحيل علميا - لا سيما في زمانه ، تطبيقها من طرف باحث واحد ، في موسوعة فتحت صفحاتها لتاريخ العالم الإسلامي بأكمله - ولعل استعصاء تطبيق هذه الآراء في كتاب (العبر) هو الذي جعل ابن خلدون يضمن خلاصة أفكاره وعبره واعتباراته خاصة في (المقدمة) . وهكذا فتح أبوابها للاجتماع والاقتصاد والمؤسسات ، وضروب الثقافات والعلوم . لأن كل ذلك إن لم يكن تاريخا صرفا بالمعنى الضيق ، فلا غنى للمؤرخ عنه ، ولا سبيل لفهم الإنسان بدونه . وهكذا كان ابن خلدون عملاقا ، يقف متفردا ، كحدِّ فاصل بين مرحلتين متميزتين في المنهج التاريخي ، وقد أعطى بهذا المنهج المتفرد سبقا للحضارة الإسلامية ، التي كان لها الفضل الكبير في الانتقال بالتاريخ من مرحلة الجمع إلى مرحلة التفسير ، ومن منهجية التوثيق إلى منهجية التمحيص والتركيب الفلسفي الذي يمثل مرحلة جديدة في الرشد العقلي للإنسانية كلها .

تصفح رقم المجلد < العدد الخامس عشر - الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة 1406 هـ > بحوث تاريخية < ابن

خلدون وريادته لعلم تفسير التاريخ < قوانين ابن خلدون الحضارية وتقويمها

نتائج البحث:

هذه هي نظرية "ابن خلدون" في قيام الحضارات وسقوطها، ولا شك أنه تحليل مهم قد سبق به علماء الاجتماع في العالم أجمع، ولا شك أن "ابن خلدون" نظر فيه نظرة شمولية، غير قائمة على الجزئية في النظر، لكنه وصف للظاهرة من كل جوانبها، فاستحق بذلك أن يكون عالم الاجتماع الأول في تاريخ الإنسانية. بعد استعراضنا أسباب قيام الحضارات وسقوطها عند ابن خلدون، نستطيع أن نلخص أهم النتائج التي توصل إليها "ابن خلدون" في الآتي:

- 1- الحضارة عند ابن خلدون عكس البداوة، وهي غاية العمران، وتؤذن بخرابه، وتحمل بذور فساد.
- 2- تعاقب البداوة والحضارة عند ابن خلدون، فطور البداوة هو طور الخشونة والبأس والغلبة والاكتفاء بالضروري والفضائل، أما طور الحضارة، فإسراف وترف وسكون ودعة ومفاسد.
- 3- للدول أعمار كما للأشخاص أعمار، لا تتعدى مائة وعشرين عامًا، وتمر بثلاثة أجيال: الخشونة والبسالة في المجد، والترف والانكسار وضعف العصبية، والترف والعجز عن المدافعة وانقراض الدولة.
- 4- لقيام الحضارة وانهارها أسباب متداخلة سياسية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية.
- 5- الحضارة بالشهادة له دلالة، فالشهادة تأتي بمعنى التوحيد والإقرار بالعبودية لله وهذا محور العقيدة الإسلامية. وعلى هذا تكون الحضارة في المنظور القرآني: نموذج إنساني يستبطن قيم التوحيد والربوبية، وينطلق منها كبعدٍ غيبي، يتعلق بوحداية خالق هذا الكون وواضع نواميسه وسنته، والمتحكم في تسييره، ومن ثمَّ، فإنَّ دور الإنسان ورسالته هي تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه، وتحسينها، وترجية معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها، والانتفاع بخيراتهما، وحسن التعامل مع المسخَّرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها.
- 6- يضع الإيمان والتوحيد على عاتق الإنسان مسؤولية إعمار الأرض والإفادة من قدراته الذاتية في البناء والعطاء واستثمار خيراتها في بناء الحضارة. كما يجعله موضع المسائلة والمحاسبة الذاتية أمام الخالق سبحانه عن ذلك كله.

7- يعطي التوحيد للحضارة الإسلامية هويتها وخصوصيتها، ويكون بمثابة صمام أمان في تعاملها مع الحضارات الأخرى وانفتاحها عليها، فلا تأخذ إلا ما يتلاءم مع التوحيد، محتفظة بوحدها وخصوصيتها [18].

8- أعطت القيم الروحية المتينة والدعائم الخلقية والفكرية للحضارة الإسلامية سمة الثبات والقدرة على مواجهة التحديات الصعبة عبر العصور والأزمنة.

9- الحضارة هي حياة المجتمع المتمثلة في نظمه ومؤسساته ومكاسبه وإنجازاته وفي القيم والمعاني التي تنطوي هذه الحياة عليها. وهي كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه عقلاً وخلقاً، مادة وروحاً فهي قصة الإنسان في كل ما أنجزه على اختلاف العصور والأزمان.

10- هنا يتضح لنا ثمة تداخل حاصل بين مفهوم الحضارة والمدنية. فالمدينة هي: الرقي في العلوم الطبيعية التجريبية كالهندسة والكيمياء والصناعة، وسميت مدينة لارتباطها بالمدينة والاستقرار. وهي تعبير عن أنماط المعيشة في أسسها المادية وفي صورها المحسوسة في حياة الناس.

إلا أن الحضارة أعم وأشمل من المدنية، فالحضارة تشتمل على النشاط الاجتماعي من كافة جوانبه الروحية والمادية. أما المدنية فهي مجرد النشاط المادي للمجتمع وما حققه الإنسان في واقع الحياة من خبرات عملية.

11- ومن هنا يمكننا القول أن لكل حضارة جسم وروح كالإنسان تماماً، فحسب الحضارة يتمثل في منجزاتها المادية من العمارات والمصانع والآلات، وكل ما ينبئ عن رفاهية العيش ومتاع الحياة الدنيا وزينتها (بمعنى المدنية)، أما روح الحضارة فهو مجموعة العقائد والمفاهيم والآداب والتقاليد التي تتجسد في سلوك الأفراد والجماعات، وعلاقتهم بعضهم ببعض، ونظرتهم إلى الدين والحياة، والكون والإنسان، والفرد والمجتمع.

12- تحتل الحضارة الإسلامية مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرى التي ظهرت في تاريخ البشرية، كما أنها من أطول الحضارات العالمية عمراً، وأعظمها أثراً في الحضارة العالمية. يقول غوستاف لوبون في ذلك السياق: لا نرى في التاريخ أمة ذات أثر بارز كالعرب، فجميع الأمم التي اتصل بها العرب اعتنقت حضارتهم ولو حيناً من الزمن...".

واعتبر عدد هائل من المفكرين والباحثين أن الحضارة الإسلامية عديمة النظير متميزة عن غيرها في الجوهر والمضمون. وأرجع هؤلاء ذلك التميز والتفرد فيها عن غيرها من حضارات الأمم إلى عوامل عديدة من أهمها مقومات وخصائص الحضارة الإسلامية.

هذه أهم النتائج التي استخلصناها من بحثنا عن قيام الحضارة وانحيارها في فكر العلامة ابن خلدون.

الهوامش :

- [1] الأعلام، خيرالدين الزركلي (3/330).
- [2] علي عبدالواحد وافي، مقدمة ابن خلدون، ص 27.
- [3] محمد الجوهري، محسن يوسف، ابن خلدون إنجاز فكري متجدد، ص 20.
- [4] للتعرف على هذه الرحلات الاقتصادية انظر: الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبدالهادي التازي، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية رحلة ابن بطوطة، ص 161/1.
- [5] محمد الجوهري، محسن يوسف، ابن خلدون إنجاز فكري متجدد، ص 20، 21، 26 بتصرف.
- [6] المرجع السابق، ص 20.
- [7] المرجع السابق، ص 28.
- [8] المرجع السابق، ص 28، 29.
- [9] المرجع السابق، ص 29.
- [10] المرجع السابق، ص 30.
- [11] المرجع السابق، ص 34.
- [12] المرجع السابق، ص 37.
- [13] المرجع السابق، ص 37.
- [14] المرجع السابق، ص 39.
- [15] المرجع السابق، ص 39.
- [16] المرجع السابق، ص 40.
- [17] الحضارة الإسلامية (أسباب الانحطاط والحاجة إلى الإصلاح)، محمد عمر شابر، ص 61.

- [18] مقدمة ابن خلدون، علي عبد الواحد وافي، ص392،393،399،401.
- [19] للتعليق على العامل الجغرافي وأثره في الحضارة والعمران، المرجع السابق، ص403،404، تعليق رقم: (268).
- [20] المرجع السابق، ص467،468.
- [21] للاستزادة في الحديث عن هذا العنصر انظر:
- المرجع السابق، ص472،473،476،477،478،479،480.
- [22] المرجع السابق، ص724،725.
- [23] للاستزادة في الحديث عن هذا العنصر انظر: المرجع السابق، ص489-782.
- [24] المرجع السابق، ص838.
- [25] المرجع السابق، ص833.
- [26] ابْدَعَرَّ: ابدعروا تفرقوا وفروا (القاموس).
- [27] المرجع السابق، ص697،698.
- [28] المرجع السابق، ص699،700.
- [29] يستخدم ابن خلدون في معظم فصول المقدمة كلمة "العرب" بمعنى الأعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشغلون بمهنة الرعي، وخاصة رعي الإبل، ويتخذون الخيام مساكن لهم، ويطعنون من مكان إلى آخر حسب مقتضيات حياتهم وحاجات أنعامهم التي يتوقف معاشهم عليها؛ وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار. كما تدل على ذلك الحقائق نفسها التي عرضها ابن خلدون في الفصول التي وردت فيها هذه الكلمة (تعليق رقم 359) للدكتور/ علي عبد الواحد وافي، مقدمة ابن خلدون، ص469.
- [30] المرجع السابق، ص508،509.
- [31] الغضارة: النعمة والسعة والخصب (القاموس)
- [32] المرجع السابق، ص533،534،535.
- [33] المرجع السابق، ص701.
- [34] المرجع السابق، ص701.
- [35] كَلِّفْتُ بِهِ كَلْفًا فَأَنَا كَلِيفٌ، أحببته وأولعت به (المصباح)
- [36] المرجع السابق، ص817،818.